المصطلح النقدي؛ رافد ثقافي يمهد لعولمة المجتمعات

The critical term; cultural tributary paving the globalization of societies

الدكتور: فيصل كوريفة

faycalmammar88@gmail.com

أستاذ مشارك؛ جامعة علي الونيسي –البليدة 02- (الجزائر)

الملخص:

تظل ثنائية (اللغة- الهوية) قضية مثار بحث لدى المهتمين بالتراث الانساني منذ أمد بعيد، لكنها أخذت في تصاعد كبير في العصر الحديث نتيجة لما طرأ على المجتمعات من تطور علمي وفكري رهيب. إن الابتكارات والاكتشافات والابداعات الحاصلة في مختلف الفنون والمعارف؛ هي مصدر قوة المجتمعات والأمم، هذا الذي جعلها تتمكن من العالم، وتفرض نمطا من الحياة، أسعفها هذا التفوق في تنفيذ مشروعها الثقافي والفكري، وجعله ينسحب على العالم كله، لم يكن هذا المشروع سوى عولمة المجتمعات وتغريبها، حيث مثلت صياغة المصطلحات وسكها قوة ناعمة ناجحة في تحقيق ذلك المشروع الذي يهدف إلى نشر ثقافة معينة، وشيوعها بين الأمم، والسعي من أجل التمكين لها في البيئات المختلفة.

الكلمات المفتاحية: اللغة؛ الهوية؛ المجتمع؛ الثقافة؛ المصطلح؛ العولمة؛ البيئة؛ التأثير.

Summary:

Le dualisme (langue - identité) reste un sujet de recherche depuis longtemps pour ceux qui s'intéressent au patrimoine humain, mais il a pris une escalade majeure à l'ère moderne en raison du terrible développement scientifique et intellectuel qui s'est produit dans les sociétés. Les innovations, découvertes et créations qui se produisent dans les divers arts et savoirs sont la source du pouvoir des sociétés et des nations, qui les ont rendues capables au monde, et imposent un mode de vie, qui est le meilleur pour cette excellence dans la mise en œuvre de son projet culturel et intellectuel, et l'a fait s'appliquer au monde entier, ce projet n'était que la mondialisation des sociétés Son aliénation, où la formulation et la création de termes représentaient une force douce et réussie dans la réalisation de ce projet qui vise à diffuser une certaine culture, sa propagation parmi les nations et à s'efforcer de la rendre possible dans différents environnements.

Key words: *language, identity, society, culture, term, globalization, environment, impact.*

مقدمة:

يعد المصطلح النقدي رمزا لغويا متحولا عن دلالته المركزية؛ حيك من أجل تأدية معنى نقدي على جهة التحديد، والمصطلح بوصفه مفتاحا ينسد فعل التواصل بالمعارف والفنون من دونه؛ فإنه أمارة صادقة تسهم في نشر ثقافة لغته المصدر، فلا غرو أن المصطلح النقدي أضحى عاملا بارزا في شيوع العولمة وتغريب المجتمعات عن شخصياتها، وآية ذلك أنك تجد بعض المصطلحات الوافدة على البيئة الهدف عبر الترجمة ترفق معه عند النقل خلفيته المعرفية ومرجعيته التاريخية وسياقه الفكري، حتى ليخيل إليك أنك بإزاء تشييد صرح ثقافي على أنقاض ثقافة أخرى، وكل فعل يروم إقحام سياق فكري ينتمي إلى لغة وبيئة معينة في نظام لغوي له بيئته الخاصة ومحيطه الخاص؛ هو فعل العولمة، هو محاولة لتحوير شخصية مجتمع ما وتغريبه عن أصالته.

إن المفاهيم والمصطلحات المستعملة في هاته الحقول المعرفية المختلفة، ليست سوى رموزا ناظمة للتصورات والأفكار والآراء على جهة معينة، ومن ثم تجد طريقها نحو الشيوع والانتشار مما يجعلها محل نظر الباحثين والدارسين -من وحدتهم الحقول المعرفية وفرقتهم الألسنة- بوصفها مصطلحات ذات شحانة دلالية خادمة لبحوثهم، غير أنها تغريبا لهوياتهم، يهدف صانعوها إلى تحقيق سياسة واضحة، إنها العولمة.

غير خاف أن فن تحديد معنى المصطلح والتعريف به، من ثم نقله من لغته الأصل إلى لغة أخرى يشترك بين حقول معرفية جمة، كعلم الترجمة وعلم الحاسوب وعلم صناعة المعاجم وفن التوثيق وغيرها من الفنون التي تتقاطع مع هذا الفن وتتداخل معه بشكل يعسر على مباشر العمل؛ تفكيك علاقاتها المتشابكة فما هو المصطلح؟ وهل السعي من أجله شيوعه غاية ثقافية؟ وما أثره على هوية المجتمعات ولغاتهم الأم؟

إن القراءة التالية محاولة الإجابة عن هذا الانشغال.

أولا: المفهوم في عرفهم:

تمثل الاحاطة بمعنى المفهوم وماهيته وعيا عميقا بجوهر الشيء وبما يلابسه، لهذا شاع عندهم أن المفهوم "ما يمكن تصوره، وهو عند المنطقيين، ما حصل في العقل، سواء حصل فيه بالقول أم بالفعل"[1] ومنه فإن المفهوم فعل ينقدح في الذهن ينشئه العقل عن طريق التعميم، بحيث يستجمع سمات وخصائص يستشفها من أمور وأشياء ترافقت عندها صفات معينة، كمفهوم الاخضرار الذي يستقيه العقل من كل شيء أخضر، أو ما يستقبله العقل من كل ما ينبعث من طيب وروائح زكية عند سماعه مفهوم عبير.

وقيل إن المفهوم "شكل من أشكال انعكاس العالم في العقل يمكن به معرفة الظواهر والعمليات وتعميم جوانبها وصفتها الجوهرية (...)، ويتحدد المفهوم من خلال معرفة متطورة تاريخيا، ويساعد تاريخ الممارسة على تعميق وإغناء المفهوم"[2]، من هنا يدرك الباحث أن للمفهوم خلفية معرفية ومرجعية تاريخية تندرج ضمن سياق فكري معين، ذلك أن المفهوم ليس شيئا نهائيا أو أمرا جامدا، فهو يتطور وفق سيرورة زمنية وتحولات تاريخية لها سماتها المميزة.

ولئن كان المفهوم فعلا ينشئه العقل ضمن سيرورة زمنية تخضع دوما للتطور والتحول، فإنه لكيما يستمد "وجوده اللغوي؛ لا بد من تأطيره وتسميته، لكي يتحدد في عالم التواصل اللغوي والمعرفي، ويقوم بهذا التأطير والتثبيت دال يعرف بالمصطلح"[3]، ومن ثم يكون المفهوم معنى للمصطلح.

فما هو المصطلح؟

ثانيا: مفهوم المصطلح:

عرف بعض علماء التراث العربي المصطلح بأنه "عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضوع الأول وإخراج اللفظ منه، وقيل الاصطلاح اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى، وقيل الاصطلاح إخراج الشيء من معن لغوي آخر لبيان المراد، وقيل الاصطلاح لفظ معين بين قوم معينين"[4] فالجرجاني ههنا ينطلق في تحديده لمعنى المصطلح من دور الاتفاق الحاصل بين أهل لغة ما في نحت المصطلح بعدما كان لفظا موضوعا بإزاء معنى معينا، لكن عدل عنه إلى آخر لأغراض معينة، كما تلفه يستند في بعض أجزاء تعريفه إلى المواضعة التي تجعل إزاء كل لفظ معنى هو خاص به.

والمصطلح أو لعله (الاصطلاح) في عرف الباحثين المحدثين هو "رمز لغوي مفردا أو مركبا، أحادي الدلالة، منزاح نسبيا عن دلالته المعجمية الأولى، يعبر عن مفهوم نقدي محدد واضح، متفق عليه بين أهل الحقل المعرفي أو يرجى ذلك"[5]، فالناظر إلى هذا التعريف يلفه قد أكد على عدول الرمز اللغوي الموضوع للنحت، وأن الرمز هذا بعد سكه يضحى دالا على معنى نقديا محددا ينتمي إلى حقل معرفي معين.

لا خفاء في أن هناك تداخلا واقعا بين المفهوم والمصطلح على مستوى الدلالة، ومن ثم يكون سبيل المصطلح هو اللغة التي تعمل على تفسير المفهوم وتقريب معناه إلى الذهن، بيد أن سبيل المفهوم العقل والفكرة القائمة على الوعي والمعرفة، وكليهما واقعين في قبضة اللغة بوصفها النظام العلاماتي الذي يحققهما ماديا ضمن حقل معرفي ما، واللغة كائن حي يعتريها ما يعتري الانسان، فهي "تتطور مع تطور حاجات التبليغ داخل الجماعة التي تستعمل هذه اللغة، وطبيعي أن يرتبط تطور هذه الحاجات بعلاقة مباشرة مع تطور الجماعة على صعيد الفكر والمجتمع والاقتصاد"[6]، فلا غرو أن اللغة تتأثر بثقافة مستعمليها، وعاداتهم وتقاليدهم وأحوالهم الاجتماعية واتجاهاتهم العقلية والفكرية.

ثالثا: المصطلح تغريب وعولمة:

قبل قليل؛ تم التأكيد على أن المصطلح يتشكل في رحاب أطر ثلاثة، حيث يستمد وجوده من خلفية معرفية ومرجعية تاريخية تندرج ضمن سياق فكري معين، إذ ليس شيئا في الحياة يستمد وجوده من ذاته، هي قاعدة تنطبق على اللغة وما ينبجس منها، وعلى الانسان وما يصدر عنه، فكلاهما دليل على الآخر، فلا لغة من دون مستعمل يتمرس بها، ولا وجود لإنسان من دون وسيلة يتفاعل بها مع محيطه الاجتماعي، ففي "أحضان المجتمع تكونت اللغة، وُجِدَت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم"[7] ونشر الأفكار، وتوصيل المقاصد والأغراض، ومن ثم فإن "وجود اللغة شرط وجود مجتمع، وهنا يتضح الطابع الاجتماعي للغة، فليس هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلا عن جماعة إنسانية تستخدمه وتتعامل به، فاللغة ليست هدفا لذاتها، وإنما هي وسيلة للتواصل بين أفراد الجماعة الانسانية، إن الفرد الواحد يشارك في عملية الكلام في مواقف الحياة، وباختلاف المواقف الكلامية التي يعيشها الفرد تختلف مشاركته في استخدام اللغة، وهنا يجد الباحث من الضروري أن يميز بين اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية والاستخدام الفردي لها باعتباره يختلف باختلاف الأفراد وباختلاف المواقف الكلامية التي يستخدمون فيها اللغة"[8]، من هنا كانت لغة المعرفة التي تستخدم المصطلح العلمي تختلف عن اللغة التي يتعاطاها أفراد المجتمع، وتكون متداولة في الفضاءات المفتوحة.

تشكلت اللغة إذن وتكونت في أحضان المجتمع، كونه مؤسسة قائمة على التفاعل بين عناصره، والتأثير والتأثر هي السمة الطاغية في رحابه، حيث تتوسل الجماعة اللغة لحاجتها إلى التواصل وصياغة الفكر وإنتاج الثقافة، وتطوير أساليب الحياة، واللغة هي الأخرى تستمد وجودها منه، إنها الوعاء الأمين على ثقافته وفكره "ومن هذا المنطلق يمكن استعمال كل ظاهرة لسانية أو مفردة للدلالة على أنها علامة خطابية تدل على ممارسة ثقافية قَبْلِية، فالظاهرة تكتسي طابعا تركيبيا داخل الخطاب، هذا التركيب له بعده الثقافي الخاص الذي يجب الإفصاح عنه"[9]، إن الظاهرة اللسانية أو المفردة اللغوية بوصفها حاملا للثقافة هي قابلة

لأن تتحول عن دلالتها الحرفية لكيما يضفي عليها الاستعمال ظلالا من الدلالات الجديدة قصد تأدية معنى نقدي أو ثقافي أو سياسي على جهة التحديد، ومن ثم فلا وجود لمصطلح خارج اللغة، فاللغة هي المؤسسة المسؤولة على خلق المصطلحات وتوليدها.

قمين بالذكر والتعرية؛ أن المصطلح صناعة ينهض بها خبراء مهرة، حيث حين سَكِّه؛ يستصحبون مع الظاهرة اللسانية بعضا من عناصر ثقافتهم فيجعلونها تستقر في أطوائه قصد التأثير، إن السعي من أجل شيوع ثقافة اللغة المصدر لهذا المصطلح أو ذاك؛ تندرج ضمن أفعال التهجين، إنه فعل يقوم على دحض "سياسات الهوية كالعرقية أو الادعاءات الأخرى بالنقاء والأصالة، لأنها تبدأ من ضبابية الحدود، وإن كانت الحداثة تعني روح النظام والانفصال المنظم بحدود صارمة، فإن التهجين يعكس إدراك ما بعد الحداثة للتلاعب بالكلمات والعدوان والتخريب"[10] تارة، وطورا العمل على مزج هذه الثقافة الوافدة عبر المصطلح بالثقافة المحلية الهدف، وأحيانا أخرى يجري هذا الفعل تحت مسمى حضاري، حتى لا يرتقي إليه الشك من قبيل؛ تلاقح الثقافات والتوافق فيما بينها، بيد أن خفاياه تتسم بطابع الخطر على هوية المجتمع المستقبل المستهلك لثقافة الآخر عن طريق المصطلح.

ولما كان في مكنة اختلاف الرياح وتضارب تياراتها تحويل "تربة أرض إلى أرض، وإذا كان الاغتراب يؤثر من التراب إلى التراب؛ فبالحري أن يؤثر الانسان في الانسان بالاغتراب، لأن الانسان من التراب"[11]، فانتقال تربة أرض إلى أخرى تغريب له أثر بالغ على ما تنبته تلك الأرض المستقبلة، فكذلك الانسان، إنه يتأثر شديد الأثر بما يفد عليه من مصطلحات تحمل شحانات دلالية وثقافات لها ارتباط وثيق ببيئة معينة، ولئن كان التغريب فعلا يهدف إلى تجريد الشيء عن أصله، وقطع الروابط القائمة بينه وبين منشأه، وجعل الانسان غريبا عن بيئته، محاولا إغراءه بالتخلي عن ذاتيه ليخلع عليه لباسا آخر لا ينسجم وسيرته الأولى، فإن أبرز التفسيرات الشائعة لمفهوم العولمة "هي فكرة أن العالم يصبح أكثر توحدا ومطابقة –من خلال تزامن تكنولوجي وتجاري وثقافي ينبع من الغرب- وأن العولمة مرتبطة بالحداثة"[12] التي تنظر إلى التراث الانساني على أن شيئا قديما وجب التخلي عنه، فالعولمة بهذا المفهوم تسعى إلى دمج الثقافات ومزجها فما كان موافقا لما تطرحه الثقافة الغربية ظل عنصرا فاعلا داخل الثقافة الجديدة، وما كان على غير وفاق معها تعين طمره في ثنايا الزمن، والعمل على استلاله من ذاكرة الأفراد والجماعات.

المصطلح رمز لغوي حيك بطريقة إبداعية عجيبة، ألجأت إلى سكه الحاجة، حيث استحدثه الناس للدلالة على مفاهيم مادية أو معنوية ينتظمها التداول والاستعمال في حقل معرفي ما، ومن ثم ينتقل من لغة المصدر إلى اللغة الهدف عن طريق الترجمة عادة، بيد أن الترجمة تفرض "دفعة من التفسير والتأويل، ذلك أن المعنى الكامن في النص المكتوب بلغة معينة والنابع من قلب ثقافة معينة هو معنى لا يمكن التوصل إليه مباشرة، لذا لابد من توسيط لغوي وتاريخي وأحيانا فلسفي"[13] وغير ذلك من الملابسات التي صاحبت النص أوالمصطلح، وهي عوامل لها تأثير على فعل النقل حين الترجمة، فمن خلال هذه السياقات يتم تهجين اللغة الهدف عن طريق المصطلح الوافد، وإدخال عليها أفكار الآخر وأنساقه الثقافية المختلفة.

تهدف العولمة إلى فرض نظام حياة مسطري، ونمط عيش محدد، تعمل على تحقيقه على مستوى الأفراد والجماعات، بحيث تشترط الحرية الثقافية أو اللغوية أو قيمة من القيم التي تعرفها المجموعة البشرية المنساحة في الأرض، من هذه المعالم التي تخطها العولمة تتم صياغة المصطلح، ومن ثم يظل مرتبطا "بالبيئة التي نشأ فيها ارتباطا وثيقا، فلا شك أن للجغرافيا دورا أساسيا في تشكيل معالمه الدلالية والثقافية فالمصطلح كيان لساني يشحن بمعان تتقيد بالأطر الثقافية للمجموعة اللسانية التي تستعمله، ولذلك فهو علامة دالة على تاريخها، يحمل في طياته تجربتها الثقافية وإنجازها الحضاري، فارتباط المصطلح اللساني بالبعد الثقافي له من المبررات ما يجعله يعبر عن خصوصية ثقافية تميز مجموعة لسانية عن غيرها، ويمثل جريان المصطلح في الواقع الاجتماعي على ألسنة مستعمليه مسلكا لكشف الهوية الثقافية والحضارية سواء كان ذلك في الراهن اليومي أو في المجرى التاريخي"[14] حتى لكأن المصطلح خزانة رتبت داخله قيم أمة ما واندكت فيها أنساقها الثقافية، حيث أخذت تميد منداحة في أطوائه، فالمصطلح بهذا الاعتبار رافد ثقافي وقع اختيار العولمة عليه للمساهمة بدينامية فاعلة في نشر ثقافة القوة وشيوعها في شتى البيئات.

سُكَ المصطلح لكيما يكون وعاء لمعنى يتفجر فيه، فهو يظل محتفظا بشحانته الدلالية التي أسندت إليه مهمة نقلها أول مرة، وذلك ضمن حقل معرفي معين، داخل بيئة اجتماعية خاصة، إذ أن للظروف الخارجية تأثير بالغ على صياغة المصطلح وتشكيله، يبرز هذا "في مستوى التلفظ وضبط دلالته، وهي ذات أصول نفسية ومعرفية واجتماعية"[15]، فمن خلال هاته العوامل تستخلص دلالة المصطلح ويحدد معناه، وإذا ما أريد لهذا المصطلح أن ينتقل إلى لغة ما عبر الترجمة؛ أُسْتُصْحِبَت معه بالضرورة تلك الأسيقة للأنساق الثقافية للغة المصدر، حيث "إن كلاً من هذه المصطلحات؛ التوليد (creolization)؛ والهجين الاسباني (mestizaje)، والشرقنة (orientalization)، يفتح نافذة مختلفة على المزج الكوني، ففي الولايات المتحدة تدل الثقافة العابرة على تبني الأمريكان ذوي الأصول الأوربية لسمات ثقافية سوداء، وتبني الأمريكان ذوي الأصول الإفريقية لعناصر ثقافية بيضاء، وكمفهوم عام؛ فإن الثقافة العابرة قد تصف بجدارة التناضح الثقافي الكوني والمزج الكوني على المدى الطويل، أما ما لم يوضح بعد فهو المصطلحات التي يحدث تحتها التفاعل والتداخل الثقافي، والجزء المفقود في تعبيرات مثل المزج الكوني هو الاعتراف بالتفاوت الفعلي والتباين وعدم العدالة في العلاقات الكونية"[16] بين الثقافات وانعدام التوازن بينها، يحدث ذلك كنتيجة حتمية للعولمة التي تفرض منطقها على البيئات الاجتماعية التي تفتقد إلى أسباب القوة، ومن ثم على اللغات التي لم تساهم في تطوير المعارف الانسانية، بحيث تنكمش اللغات القومية آخذة تنحسر منكفئة على ذاتها فاسحة المجال للغة مصدر المصطلح تتمدد كاشفة عن غرضها في الشيوع والتوسع، جاعلة اللغة القومية تحت قيد العولمة وقوانينها الصارمة، إن شيوع الثقافة الوافدة في بيئة اللغة المنكفئة على ذاتها إيذان بضمور ثقافة أصيلة للمجتمع المعولم والمغرب عن بيئته ولسانه.

رابعا: اللغة التجسيد المادي للهوية:

ليس من وسيلة عرفها المجتمع البشري واتخذها أداة تفكير وتعبير، غير اللغة، فبها يتواصل الإنسان مع محيطه، وعبر اللغة ينقل أفكاره ومقاصده، فاللغة قدرة جبارة تستوعب تصورات الانسان ورؤاه، وكل ما

يتعلق به من أشياء مادية أو معنوية، إنها وسيلة تنطوي على رصيده الثقافي والمعرفي والحضاري، إن اللغة "تمكن الانسان من الحفاظ على ثقافته وحضارته والإضافة إليها، وتطويرها في ضوء التصور الاعتقادي والاجتماعي الذي يؤمن به"[17] حيث كانت اللغة تنقل ثقافة المجتمع عن طريق المشافهة والسماع، لهذا يكون العصر الحديث قد فقد كفلا عظيما من التراث الانساني التليد، وبعد أن عرف الانسان طريقه إلى الكتابة والتدوين أضحت هذه التقنية الجديدة لا تغادر شيئا من ثقافة المجتمعات.

بناء على ذلك؛ يكون التوثيق أهم روافد التقدم العلمي والمعرفي في حياة الأمم، بوصفه فعلا يقوم على تدوين المادة وتسجيلها ثم ترتيبها وفق منهج علمي متفق عليه، مستأنسا باللغة، بيد أن "فلسفة أية لغة لا تنحصر بمعرفة قوانينها الخاصة فحسب، إنما تتجاوز هذا المستوى لتتناول أطرها العامة، وبيئتها الخاصة وعلاقتها باللسان والنفس والمجتمع، فهناك اللغة مستقلة من جهة قصودها ودلالاتها، ومرتبطة من جهة علائقها بالبيئة والتاريخ والأمة والفرد واللسان، ذلك أن العوامل المؤثرة في نشأتها ونموها وتطورها لا يمكن حصرها ضمن خط واحد مستقيم، فقد يكون لها أكثر من طريق تسلكه لتصل حاضرها بماضيها، وأكثر من خاصّة تبرزها متفاعلة مع غيرها، كذلك لا تهمل هذه الفلسفة عقلية الشعوب التي تعكسها اللغة في ألفاظها ومعانيها، في أسمائها وصورها، في رسومها وحدودها، وهكذا تتواصل إلى الكشف عن بواطنها بشمولية، وتبيان فلسفتها الخاصة وعالمها الذاتي"[18]، إن اللغة هي الحامل الثقافي للإنسان، تتجسد عبرها شخصية الفرد وهوية المجتمع، ذلك أن "أفعال اللغة هي أفعال الهوية"[19]، فليست اللغة إذن سوى دليلا ماديا على هوية الانسان وثقافته، وتطورها عبر التاريخ، ومن ثم يجيء دور فعل القراءة للكشف عن ذاك التمازج العجيب الحاصل بين اللغة بوصفها نظاما يتميز بقدرة فائقة على استعاب مقاصد الناس وأغراضهم المختلفة، والهوية باعتبارها بنية تتشكل من مجموعة من الأنساق المتداخلة كالبيئة والتاريخ والرؤى والتصورات والقيم والمعتقدات وغيرها.

تعاطي اللغة في المواقف المختلفة؛ هو ممارسة فعلية لقيم وجدانية تنطوي عليها شخصية الفرد المتكلم، وتجسيد مادي حقيقي لهويته، ولعل هذا الذي جعلهم يعتبرون الهوية وظيفة ثالثة ومميزة للغة والكف عن محاولة الفصل بين الروابط القائمة بينها، ذلك أن فعل التلقي وبناء عملية الفهم، يتم عبر معرفة هوية القائلين والكتاب والمحاورين، "إن الذي يهم هو أن ندرك أنه إذا اختزل استعمال الناس للغة بطريقة تحليلية في كيفية تشكيل المعنى وتمثيله في صوت، أو في كيفية إيصاله من شخص إلى آخر، أو حتى فيهما معا فإن ثمة شيئا حيويا قد استخلص؛ إنهم الناس أنفسهم، إنهم حاضرون دوما في ما يقولون وفي الفهم الذي يبنونه على ما يقوله غيرهم، إن هويتهم تتأصل في صوتهم، ويكون ذلك ملفوظا، أو مكتوبا، أو مُوَقعا"[20] فأنت إذ ذاك؛ إزاء إنسان متفرد أخذ يلقي خصائصه الشخصية لتقع في قبضة اللغة، فلست تفصل حينها بين أفعال الخطاب الذي شكلته مواد اللغة، فصار بنية ظاهرة، وبين هوية بثها المتكلم في عناصر الخطاب ودكها في الألفاظ والعبارات والجمل.

تنصرف الأفكار والأغراض والمشاعر كلها لتتجمع في اللغة، مشكلة بذلك نسقا ثقافيا منتظما، يعبر عن هوية المجتمع، ذلك أن الفرد المتكلم يستكمل أطواره داخل المؤسسة الاجتماعية ويتم دوره المنوط به تبعا

لقوانين المؤسسة الجامعة، وليست هذه القوانين خلا التقاليد والعادات والمعتقدات وغيرها، فلا خفاء أن هناك ارتباطا متينا بين اللغة والأرض والتاريخ والبيئة والمجتمع والجنس والمحيط، وكذا المعتقد والقيم، إن اللغة تنشأ أول الأمر عن التداول لمواداها من قبل أفراد المجتمع، الكائن وجودهم "في مسكن وبلد محدود ويفطرون على صور وخلق في أبدانهم محدودة، وتكون أبدانهم على كيفية وامزجة محدودة، وتكون أنفسهم معدة ومسددة نحو معارف وتصورات وتخيلات بمقادير محدودة في الكمية والكيفية-فتكون هذه أسهل عليهم من غيرها- وان تنفعل انفعالات على أنحاء ومقادير محدودة الكيفية والكمية –وتكون هذه أسهل عليها- وتكون أعضاؤهم معدة لأن تكون حركتها إلى جهات ما وعلى أنحاء أسهل عليها من حركتها إلى جهات أخر، وعلى أنحاء أخر"[21]، إن اللغة حين إنشائها من قبل جمهور العامة من المجتمع، وصياغة ألفاظها وعباراتها؛ تبدأ في التشكل حاملة كفلا عظيما من سماتها ذلك الجمهور وخصائصه النفسية وطبائعه الفطرية، وأفكاره وتصوراته وميولاته، ورغائبه وأذواقه ومعتقداته، حتى لكأنها قدّت منه، فهي بعض من تركيبته الفيزيولوجية، إنها قبضة من مشاعره، بل شعلة من عاطفته الدافقة، إن اللغة هي الجوهر الذي يخلع الدلالات على تصوراته العقلية،ولكأن هذا المجتمع قطعة بارزة من نظام اللغة العام.

وإذا كان لفظ اللغة يطلق ويراد به اللسان البشري، فإن معظم الدراسات اللسانية المعاصرة "تسعى للكشف عن رمزية الثقافة داخل الخطاب؛ إذ من المسلم به أن ثقافة أي مجتمع وتاريخه وعقله، لا يمكن أن تنفصل عن تاريخ لسانه، فالحياة والتواصل مع الآخرين يقتضيان لسانا مشتركا، ويحتفظ هذا اللسان بأثر الثقافة المشترك، فاللسانيات إذا بعد ثقافي لا يمكن إغفاله في البحث، فاللسان هو الوعاء لثقافة فعلها في الذات، (...) ويأتي اللسان ليعبر عن هذا الفعل، لأنه هو الذي يضمن للثقافة استمراريتها عن طريق الخطابات، ومن ثم تصبح العلامة اللغوية مركز استقطاب لفكرة ثقافية، وأداة توسل داخل الخطابات، وبواسطتها تمرر الثقافة أنساقها إلى المتلقي، ليعاد انتاجها مرة أخرى، ومن ثم تكتسب المصداقية والاستمرارية، وتكتسب الفكرة الثقافية قيمتها داخل العلامة اللسانية، لكونها تحمل بعدا تواصليا، يضمن لها استمراريتها داخل الخطابات، وإذا كان التواصل الفني يتحقق عن طريق التلقي الجمالي، فالتواصل الثقافي يتحقق عن طريق التلقي الثقافي"[22]، ولن يتم ذلك إلا عن طريق اللغة، بوصفها المسؤول عن تجسيد الفعل الثقافي وإخراجه من الحيز المعنوي إلى المادي، إذ ليست الأنساق الثقافية على شيء من القيمة وهي حبيسة الذهن كامنة فيه، قائمة في النفس متمكنة منها، دون أن تجد طريقها إلى وعاء تستقر فيه، حيث يمدها بشروط البقاء وبإمكانات الاستمرار في الحياة والقدرة على الثبات أمام خطر التغريب وتحديات العولمة، إن الأداة التي تضطلع بهذه المهام وغيرها هي اللغة، لما تتميز به من خصائص الشمول والاستعاب.

للغة أثر كبير في الكشف عن شخصية الانسان وإبراز ملامح هويته حين التلقي، إن اللغة والهوية هي عناصر تلاحمت معا وامتزجت لتشكل أقوالا وخطابات تدل على فرد ينتمي إلى جماعة لها قيم تتميز بها، فلا غرابة إذا أنت ألفيت قوما يخلعون على اللغة صبغة قدسية، "باعتبارها أهم وسيلة للحفاظ على الهوية الثقافية، وباعتبارها المكون الأساسي لها، وقد أعلنت الكنيسة بالفعل أن الولاء اللغوي هو شأن من شؤون الإيمان، محاولة أن تواصل سيطرتها على رعاياها بواسطة الشعار المشهور: (Qui perd sa langue perd sa foi)

"إن تفقد لغتك تفقد إيمانك""[23] فاللغة بهذا الاعتبار، تحمل صبغة قدسية، لأنها مكون رئيس لهوية الفرد والجماعة، حيث تسعى الكنيسة إلى حمل الناس على الاستمساك باللغة القومية الأم تحت هذه الأمارة الإيمانية، "لأن الهوية ذاتها لا يكتمل مدلولها إلا في جوهر اللغة وفي كيفية الوظيفة التي تؤديها هذه اللغة، وفي الطرق والأسباب التي عملت على ظهورها إلى الوجود وتطورها، وفي كيفية تعلمها واستخدامها كل يوم من قبل كل مستخدم لغة في كل وقت وحين"[24]، إن الهوية شيء كامن مترسب في كيان الانسان، يخزن بعضه الذهن، وينطوي على بعضه القلب، ويحمل كفلا من همومه الفكر، ويظل كفل آخر مندسا يلفه الوجدان، وأجزاء أخرى جاءت قسمة بين النفس والبيئة والمجتمع، إن الهوية بهذا التصور في حاجة إلى طاقة تسندها، وإلى قدرة تستوعبها، وإلى نظام يتولد عنه مدلولها، وإلى معين لا ينضب لتستمد منه وجودها وقيمتها، وليس شيئا في مكنته تجسيد الهوية بكل عناصرها غير اللغة، ومن ثم يكون ضربا من الترف الفكري مباشرة الفصل بين كيان وروح حلت فيه فخالطته وامتزجت به، فكذلك لغة الأمة وهويتها، إن اللغة هي الصورة المادية الظاهرة للهوية، فاللغة هي الهوية.

الخاتمة:

يستنتج مما سبق أن المصطلح لا يستمد وجوده من ذاته، بل اللغة هي المؤسسة المسؤولة على خلقه وتوليده، يتأصل في رحاب خلفية معرفية ومرجعية تاريخية تندرج ضمن سياق فكري معين، وهو إذ ذاك؛ عامل بارز في نشر ثقافة لغته المصدر، ذلك أن الفريق الذي سكه دكه بعناصر ثقافية مرتبطة ببيئة إنتاجه، ومن ثم فإن هناك غاية جعلته يتضمن هاته الثقافة حين الصياغة، وحين النقل عن طريق الترجمة؛ يستصحب معه كل شيء يرتبط بمنتجيه من تاريخ وفكر ورؤى وقيم ومعتقدات.

ولئن كانت الهوية هي جوهر الانسان وروحه التي تحرك فيه الشعور بالحياة، فإن اللغة هي الطاقة الجبارة التي تستوعب هذا الجوهر وهذه الروح، وعبرها ينقلا من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعل، وعليه؛ كل عمل يبغي التشويش على لغة الانسان الأم عن طريق أساليب مختلفة، هو عمل يروم تحوير الهوية ولا شيء غيرها، وكل عمل يأتي على الانسان فيذره من دون حياة؛ إنما أخذه من قبل هويته.

إن القعود عن إنتاج الفكر وصناعة المعرفة، والنظر في شأن صناعة المصطلحات والمفاهيم وسكها من أجل سد النقص الذي تواجهه الحقول المعرفية في بيئة ما، وإشباع رغبة الباحثين منها، هو داء عياء، وعجز على مستوى العقل، إن وضعا كهذا يفضي بالضرورة إلى فراغ رهيب تنكمش خلاله اللغوية القومية ومن ثم الثقافة المحلية، لتحل محلها الثقافات الوافدة فاسحة المجال أمامها تنسحب على الواقع والحياة.

الهوامش:

[1]-جميل صلبيا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج2، 403.

[2]-الموسوعة الفلسفية: بإشراف: م. روزنتال، ب. يودين، تر: سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ص484.

[3]-أحمد بوحسن: العرب وتاريخ الأدب، نموذج تاريخ الأغاني، دار توبقال، الدار البيضاء، ص22.

4-الجرجاني: علي بن محمد بن علي الحسيني: كتاب: التعريفات، تح: محمد باسل عيون السود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص32.

5-يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ص24.

6-أندري مارتيني: مبادئ اللسانيات العامة، تر: أحمد الحمو، بإشراف عبد الرحمان الحاج صالح، وفهد عكاف، المطبعة الجديدة، دمشق، ص176.

[7]-جوزيف فندريس: اللغة، تر: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، تقديم: فاطمة خليل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص35.

[8]- محمود فهمي الحجازي: مدخل إلى علم اللغة، دار قباء، القاهرة، ص12.

[9]- عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخاطب وأنساق الثقافة –فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة-، ط1، (2010)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ص23.

[10]-جان نيدرفين بيترس: العولمة والثقافة المزج الكوني، تر: خالد كسروي، مراجعة: طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، (2015)، ص82.

[11]-أبو حيان التوحيدي: الامتاع والمؤانسة، اعتنى به وراجعه: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية، بيروت، ج1، ص82.

[12]- جان نيدرفين بيترس: العولمة والثقافة المزج الكوني، ص95.

[13]-جيرار ليكلرك: العولمة الثقافية الحضارة على المحك، تر: جورج كثورة، دار الكتب الجديدة، المتحدة، بيروت، ط1، (2004)، 184 -185.

[14]-خليفة المسماري: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، (2013)، ص143-144.

[15]- خليفة المسماري: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، ص149.

[16]- جان نيدرفين بيترس: العولمة والثقافة المزج الكوني، ص100.

[17]-أحمد مدكور، رشدي أحمد طعيمة، إيمان أحمد هريدي: المرجع في مناهج تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، دار الفكر العربي، ط1، (2010)، ص47.

[18]-جيرار جهامي: الإشكالية اللغوية في الفلسفة العربية –دراسة تحليلية نقدية- دار المشرق، بيروت، ط1، (1994)، ص105.

[19]- أندري تابوني –كيلر: دليل السوسيو لسانيات، تحرير: فلوريان كولماس، تر: خالد الأشهب، ماجدولين النهيمي، ط1، (2009)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص679.

[20]-جون جوزيف: اللغة والهوية –قومية –إثنية –دينية، تر: عبد المور خراقي، عالم المعرفة، الكويت، العدد342، ص29.

[21]-الفارابي : أبو نصر الفارابي: كتاب الحروف، حققه وقدم له وعلق عليه: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، ص134-135.

[22]-عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخاطب وأنساق الثقافة –فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة-، ط1، (2010)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ص18-19.

[23]-فلوريان كولماس: اللغو والاقتصاد، تر: أحمد عوض، مراجعة: عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، الكويت، العدد263، ص113 -114.

[24]- جون جوزيف: اللغة والهوية –قومية –إثنية –دينية، ص284.

قائمة المصادر والمراجع:

- جميل صلبيا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج2.

-الموسوعة الفلسفية: بإشراف: م. روزنتال، ب. يودين، تر: سمير كرم، دار الطليعة.

-أحمد بوحسن: العرب وتاريخ الأدب، نموذج تاريخ الأغاني، دار توبقال، الدار البيضاء.

-الجرجاني: علي بن محمد بن علي الحسيني: كتاب: التعريفات، تح: محمد باسل عيون السود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت

-يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.

-أندري مارتيني: مبادئ اللسانيات العامة، تر: أحمد الحمو، بإشراف عبد الرحمان الحاج صالح، وفهد عكاف، المطبعة الجديدة، دمشق.

-جوزيف فندريس: اللغة، تر: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، تقديم: فاطمة خليل، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

- عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخاطب وأنساق الثقافة –فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة-، ط1، (2010)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-جان نيدرفين بيترس: العولمة والثقافة المزج الكوني، تر: خالد كسروي، مراجعة: طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، (2015).

-أبو حيان التوحيدي: الامتاع والمؤانسة، اعتنى به وراجعه: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية، بيروت، ج1.

-جيرار ليكلرك: العولمة الثقافية الحضارة على المحك، تر: جورج كثورة، دار الكتب الجديدة، المتحدة، بيروت، ط1، (2004).

-خليفة المسماري: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، (2013).
- خليفة المسماري: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم.
- جان نيدرفين بيترس: العولمة والثقافة المزج الكوني.
-أحمد مدكور، رشدي أحمد طعيمة، إيمان أحمد هريدي: المرجع في مناهج تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، دار الفكر العربي، ط1، (2010).
-جيرار جهامي: الإشكالية اللغوية في الفلسفة العربية –دراسة تحليلية نقدية- دار المشرق، بيروت، ط1، (1994).
- أندري تابوني –كيلر: دليل السوسيو لسانيات، تحرير: فلوريان كولماس، تر: خالد الأشهب، ماجدولين النهيمي، ط1، (2009)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
-جون جوزيف: اللغة والهوية –قومية –إثنية –دينية، تر: عبد المور خراقي، عالم المعرفة، الكويت، العدد342.
-الفارابي : أبو نصر الفارابي: كتاب الحروف، حققه وقدم له وعلق عليه: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت.
-عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخاطب وأنساق الثقافة –فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة-، ط1، (2010)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.
-فلوريان كولماس: اللغو والاقتصاد، تر: أحمد عوض، مراجعة: عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، الكويت، العدد263.